وهابيون متصوفون

منصور النقيدان

باحث سعودي.رئيس تحرير مركز المسبار للدراسات

هذه الشهادة تعرض جوانب من الزهد والورع والنسك والخمول[١] الذي كان يمتاز به بعض من عرفتهم أو رويت عنهم من (إخوان بريدة[٢]) وهم عشرات من أتباع مدرسة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، كانوا حُمْسَ الوهابيين والأمناء على تعاليم الإمام وسدنة مدرسته. وهذه القصص التي أرويها وثيقة تاريخية تشي بنزعة صوفية حنبلية عند الجماعة، وتظهر فاقعة عند أحد أعلامهم وأكثرهم شهرة وغرابة وجاذبية الشيخ فهد بن عبيد العبدالمحسن، مع آخرين من علماء الإخوان وطلبة العلم فيهم وعامتهم[٣].

---

[١] أي البعد عن الحشود والأتباع والانشغال بالنفس وإصلاح رعوناتها، وليس القصد منه الخمول عن الدعاء أو الفتور عن العبادة والتقاعس عن سلوك طريق القوم.

[٢] "الإخوان" وهو وصف لاعلاقة له بجماعة "الإخوان المسلمين". ووصف " الإخوان" نابع من كونهم إخوة في الله اجتمعوا على محبته واتباع سنة رسوله، وهو وصف محبب لكل من تطوع في نجد منذ فترة مبكرة لانتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد كان المتطوعون المقاتلون من أبناء البادية في جيش الملك عبدالعزيز آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية يسمون بـ"الإخوان"، ولهذا يقال عنهم"إخوان من طاع الله".ومن مطوِّعة نجد إخوان بريدة، ومع ذلك فقد كان لكل من إخوان بريدة ، والإخوان البدو، أفكار يتميزون بها عن بعضهم البعض. وكل هذه الفئات لاعلاقة لها بالإخوان المسلمين.وإخوان بريدة هم حنابلة وهابيون، تعرضت جماعتهم الصغيرة للتحولات والتطورات بشكل كبير منذ تسعينيات القرن الماضي. واليوم ٢٠١١، تكاد تلك الجماعة بأفكارها وانعزالها وولائها العميق للحكم السياسي تتعرض للانقراض، بعدما تحول كثير منهم إلى الجهادية السلفية.

[٣] أظن أن عدم وجود شخصيات ملهمة قريبة منا في ثقافتنا الاجتماعية نابع من أن الجميع يتعاطى مع الأعلام والشخصيات التاريخية على أنهم نمط واحد ماعدا فروقا بسيطة لاتغني شيئاً. على خلاف الأعلام الذين نعرف تفاصيل كثيرة جداً عنهم من الأوائل. وباستعراض تراجم علماء نجد، سنرى أن مئات الأشخاص الذين قرأنا عنهم يبدون متشابهين متطابقين وكأنهم أحجار مصمتة.من المؤسف أننا لانعرف تفاصيل حياة محمد بن عبدالوهاب، أو الشيخ عمر بن محمد بن سليم، أو محمد بن إبراهيم وأمثالهم. أستثني كتابين اثنين أحدهما لعبدالله بن سعدي (لمحات من حياة الشيخ عبدالرحمن السعدي) وكتاب(رحلتي نحو النور) لمالك الرحبي عن حياة ابن عثيمين، فكل من هذين العالمين قدمه الكاتب إنساناً بكل مزاياه وعيوبه. وقد تسببت بعض القصص التي ذكرها محمد بن عثمان القاضي في كتابه(روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد) عن بعض من ترجم لهم بإحراج له وعتب وغضب من بعض أبناء من روى عنهم القصص. وذلك كان درساً لمن يفكرون بكتابة سير الأعلام بطريقة أكثر شفافية وأكثر حميمية عمن يترجمون له.

تحولات وشوق لايتبدل

لازمتني منذ سنوات يفاعي رغبة في الاعتراف كلما غلت نفسي وبلغت أوج قلقها وشعورها بالشقاء. شعرت بالحسد تجاه المتصوفة، وراق لي فترة من الزمن اعتراف المسيحي بين يدي رجل الدين، ويدهشني أولئك البسطاء الأنقياء الذين كلما طلبت منهم شرح مايحملونه بين جوانحهم من أسى، حمدوا الله على الحال والستر وطمأنينة البال.

قبل ستة وعشرين عاماً، كنت شاباً مراهقاً في السابعة عشرة من العمر، أقضي ساعات نهاري وشطراً من الليل متنقلاً بين رواق مسجد الحميدي وبين سرحته الغربية. وكنت أقضي وقتاً طويلاً من نهاري متنقلاً بين ثلاث غرف صغيرة مكتظة بالكتب والأوراق والكراريس المغبرة، وقد توزعت الغرف بين أرجاء المسجد وفي سطحه. كان المسجد قبل هدمه في ١٩٨٨ يحوي سبع غرف، وخمس منها كانت نزلاً لأشخاص رحل معظمهم عن دنيانا وقبل ولادتي بعقود. ثلاث منها كانت صوامع لعباد ونساك وطلبة للعلم. سكبوا فيها الدموع، وباحوا بين جنباتها بلواعج نفوسهم. وبعيداً عن أنفاس البشر، ووطأة ظلهم وجدوا الأنس في وحدتهم، والطمأنينة في خلوتهم. منهم من فارق الدنيا وهو على تلك الحال، ومنهم من فترت همته وانشغل كأبناء زمانه من أبناء الدنيا، حيث مثلت له تلك الذكرى بين جنبات مسجد الحميدي نبعاً من الطمأنينة وتميمة من مصارع السوء، أو كوة تشرف على حدائق الأحزان وأشواق بني الإنسان، أو نقطة دوامة من الأسئلة التي تهجم عليه كطرقات القدر، وتلوك السالك في خلوته وتعصف به حتى تتركه طريح الفراش مدنفاً خاثر النفس، مفجوعاً بإيمانه.

أكبر مكابدة كان يواجهها نساك السلف الأوائل والعارفون الكبار منهم، هي تقلب النفس وطيشانها والتوتر الذي يعصف بهم مع خفقات قلوبهم الليل والنهار. مع تقلب(النوايا) ومصارعة النفس وحملها على الإخلاص ومحاسبتها بقسوة كلما أصابهم الفتور أو مالوا نحو الدعة وشعروا بالنشوة للذكر بين الناس ووطئهم أذيالهم والاحتشاد بأبوابهم طلباً لحكمتهم واقتباساً من نور

بصيرتهم. لهذا كان شيخي وصديقي عبدالله الحبلين الذي لازمته عاماً كاملاً (١٩٨٦) مثل ظله في مراهقتي يؤكد لي كل حين أن على الإنسان أن يستعيذ بالله من الشهوة الخفية.

ذات مرة وأنا برفقة هذا الصديق العابد استوقفنا قبل المغيب شيخ محدودب الظهر لحيته بيضاء كالقطن، صافحته يومها وكان يحمل صندوقاً صغيراً من البندورة. أشار إلى الصندوق وقال لنا: "لقد جمعتها من الأرض. إنها حلال لاشبهة فيه، لامنة لأحد من الخلق فيها". سأله صديقي عن الشهوة الخفية، فأجابه "هي حب الرئاسة". لم يكن ذلك الإنسان الغريب إلا محمد بن عبدالله أبا الخيل(توفي في١٩٩١) الذي كان معروفاً بـ(ولد ابو ركعة) لأن أباه كان مثلاً في العبادة والزهد، وجاء الابن حذو والده. كان ذلك الشيخ يخبر بعض المقربين منه ومن عرفوا حاله ووثق بهم أن له أصدقاء من الجن، يؤانسونه وله جماعة منهم يأنس بهم ويسامرهم أحياناً. كان محمد أبا الخيل يعيش وحيداً، بعيداً عن ابنائه وأحفاده. وفي منزله كانت مكتبته موزعة في عشرات من سلال الخوص وسعف النخل[٤]، فلم يكن يحب أن تكون رفوف الكتب في قوائم كما هو معروف ومعتاد.كان يرى ذلك سوء أدب مع الكتب، أو أمراً محدثاً على غير نهج الأسلاف. وقد كان يتجنب كل الأغذية المعلبة والمشروبات الغازية، ويحمل نفسه على هجران من عرف منه ذلك من أحبابه وأصدقائه. وقد قاطعني قبل وفاته بثلاث سنوات حينما سمع بأنني عقدت مجلس مباهلة مع الشيخ الزاهد الأسطوري عبدالكريم الحميد[٥] حول حقيقة مانقله ابن قيم الجوزية عن شيخه ابن تيمية عن فناء نار الكفار ودخول كل البشر مؤمنهم وكافرهم في الجنة بعدما

---

[٤] السلة معروفة باللهجة الدارجة بـ(الزبيل) أي الزنبيل

[٥] كتبت عنه مقالتين في مجلة المجلة يناير ٢٠٠٠، وأخرى مطولة في جريدة الوطن السعودية ٢٠٠٢. وعبدالكريم الآن قيد الإقامة الجبرية منذ أربع سنوات في مدينة الطائف غرب السعودية، بعدما قامت الحكومة بسجنه مرتين بعد تورطه في علاقات وثيقة مع مجموعات اعتنقت الجهادية السلفية. وهو الآن في العقد السابع من العمر.انظر.منصور النقيدان.جرعة من حياة بسيطة.جريدة الرياض. ٤ يوليو ٢٠١٠:

http://www.alriyadh.com/2010/07/04/article540390.html

يتطهرون بالعذاب ماشاء الله من الحقب والأزمان. وزاد وضعي تعقيداً عند (ولد أبو ركعة)حين شهد اثنان عنده أنني تعاطيت المعلبات[٦].

لم يسبق لي أن التقيت بناسك من الإخوان، كان قد فارق الدنيا قبل أن أدركه وهو حمد الرشودي، وكان كما حكي لي عنه يتجنب المرور بشارع الخبيب، الذي كان هو شارع التجارة والبنوك وتنتشر على جنباته المتاجر التي يباع فيها الدخان وأجهزة التليفزيون وكل ماينتمي إلى وسائل اللهو. استمر على هذه السنة ثمانية عشر عاماً حتى وفاته. وهذا الحذر كان تعبيراً عن الاحتساب والرفض الصامت الذي هو أدنى درجات إنكار المنكر، وفي زيارة الملك فهد بن عبدالعزيز لبريدة عام ١٤٠٨ هـ/ أبريل ١٩٨٨، هجر رهط من الإخوان خُفية بريدة طوال أيام زيارته، حيث قضوا تلك الأيام في مزرعة بأم الذيابة التي تبعد أربعين كم عن بريدة.وقد قوبل ذلك الموقف المتشدد من شباب الإخوان بالنقد والتعنيف لهم من قبل من هم أكبر منهم سناً[٧].

قصص كالأساطير

لسنوات طويلة شَغفت قلبي شخوص المعتكفين الذين يلزمون سواري الحرمين ركعاً سجداً منذ غروب الشمس وحتى الهزيع الأخير من الليل وفي سويعات الضحى، يرشفون رحيق عشقهم ويتدثرون بألطاف الحبيب قريباً من الكعبة أو خلف المقام. كنت سويعاتٍ أسترق السمع وأصغي إليهم وهم يهمهمون ويريقون دموع التضرع وينفثون تباريحهم وأوصابهم التي كتموها ودفنوها بين جوانحهم.

مرة قال لي واحد منهم هو محمد الأحمدي[٨] وهو شاب دون الأربعين: إن في المسجد الحرام شيوخاً لم يفارقوه منذ ثلاثين عاماً قدموا من شرق آسيا ومن القوقاز بعد أن عقدوا عزمهم وودعوا

---

[٦] ونقل إليه أنني شربت البيبسي ذات مرة فكانت نهاية صلته بي.وكان أتقياء الإخوان يتجنبون المعلبات ماعدا التونة والزيتون.ولكنهم لم يكونوا يغلِّظون ويعنفون من يتعاطاها إلا فئة قليلة منهم.

[٧] كان الانتقاد من شيوخ الإخوان لأن اعتزال المدينة أثناء زيارة الملك تعبير عن موقف سياسي احتجاجي وعدم رضا، وإن كان قد برر من قبل رهط (المعتزلة) بأن الزيارة الملكية يصحبها انتشار الصور في الشورع والطرق والأغاني والطبول وما يمكن وصفه في رؤية الإخوان بـ(اللهو والفسق).

[٨] كان من أركان المسجد الحرام. وكان يومها قد شارف على الأربعين، ولم يكن يبارح المسجد إلا للوضوء والغسل أو لدعوة توجه إليه من صديق. بقي سنوات ملازماً للمسجد يتعبد الله ويذكره ويسح دموعه بين الحطيم وزمزم.

أحبابهم، وذات ليلة باردة شدوا الرحال مهاجرين إلى مهبط الوحي ليفنوا الباقي من أعمارهم في مكة أو في طيبة حيث رسم للرسول ومعهدُ.

في مسجد عيسى جنوب بريدة كان إبراهيم بن عثمان القرعاوي يندِّي الرمل الذي يعفر فيه وجهه، كنا نعرف مصلاه بعد انفضاض المصلين، ليس عليك إلا أن تبحث في روضة المسجد خلف الإمام موضع ثلاثة عن يساره أومثلهم عن يمينه، هناك دائما بقعة مبللة بالماء، كانت تلك دموعه التي روَّى بها الأرض، كان يهمس همساً يلتقطه كل من حوله، أحيانا أميزه بين الصف وهو ساجد قبل الإقامة لأنه كان يرتجف وتنوء أشواقه بجسده الضخم، وما أكثر ماسمعت كلماته الوجلة وأنا على بعد خطوات منه. قال لي حفيده: سافرت معه بالسيارة إلى العمرة فكان يأمرني بالوقوف كل ساعتين فيجدد وضوءه ثم يعمد إلى الصلاة في ظل شجرة أو ناحية من الصحراء في ظلمة الليل، ولاتهدأ روحه حتى يرى أستار الكعبة.

كنت أعجب كيف لمثل هؤلاء أن يحتملوا العيش، فقلوبهم منكسرة وأحزانهم لا تنقضي، حتى جاء اليوم الذي انكشفت لي فيه حقيقة القوم. فلم يكن مايكابدونه حزناً، بل غبطة وسلوى. كان غسيلا لقلوبهم ونسيماً باردًا يهدهد أرواحهم المستوحشة من كل من حولهم.

قال لي صديق قديم اسمه صالح الحصان: شكا جدي مرة جدتي إلى فقيه الشماسية ضيف الله اليوسف وقال: إنها خير النساء ولكنها لاتلقي لي بالاً حين يأتيني الضيوف وهي منشغلة بصلاة الضحى. إنها تستمر في صلاتها حتى تنهيها والضيف ينتظر، وطاعتي أولى من نافلة الضحى، فتلطف معها الشيخ ونقل إليها ظُلامة زوجها، فكان ردها: "عندما أكبِّر تكبيرة الإحرام أرى كوة من النور تفتح لي من السماء، وتغشاني هالته وتغمرني تهاويله، فكيف لي بأن أسمع نداء زوجي ولو سمعته لأجبته. " فلزم جدي الصمت وتركها لعشقها السماوي، وبعد موتها عاش تسعين ليلة محطم القلب، كان يأوي كل يوم إلى غرفته، فيندس منعزلاً ويبكي حرقة على فراقها حتى لفظ أنفاسه.

ومرة وقع شيخي عبدالله بن محمد الدويش على طالب عنزي من بادية القصيم، كان قد ناهز الثالثة عشرة وهو ينفث الدخان من فمه خارج أسوار المدرسة الدينية الأهلية، فأبلغ الشيخ مدير المدرسة صالح البجادي، فاستدعى الطالب وضربه على يديه، مكتفياً بشهادة الشيخ، ولكن

الغلام أنكر ذلك وفر هارباً من المدرسة وهو يدعو على من ظلمه، أخذ الدويش ليالي لم يهدأ له بال، أزعجه الأرق وآلمه أن يكون قد تراءى لعينيه مالم يكن فيكون قد ظلم الصبي، فطلب من أحد تلاميذه أن يدله على بيت والد الطالب في اللابدية شرق بريدة، وقال له بعد أن قبل رأسه "سامحني لقد أخطأت في حقك وشهدتُ بما لست مستيقنا منه" وبعد أيام شوهد الطالب وهو ينفث الدخان من سيجارته.

لم يكن الدويش يحمل رخصة قيادة، وفي أسبوع المرور صادفته نقطة تفتيش فشحنوه مع المخالفين إلى التوقيف ومضى عليه نصف يوم وهو صامت، لم يقل لهم إن كثيراً من أئمة وخطباء بريدة من تلاميذه، ولم يقدم نفسه كعالم دين عليهم أن يوقروه ومن واجبهم عدم التعرض له، بل انشغل بقراءة القرآن والصلاة، وبعد أن قام طلابه وأحد أساتذته بالبحث عنه لساعات جاءهم الخبر، فتوجهوا إلى مكتب مدير المرور وشرحوا له الحال عاتبين عليهم احتجازه، فأوضح لهم أن صاحبهم لم ينطق بكلمة واحدة ولم يكشف عن حاله.

كان الدويش لورعه يتحاشى أن يمر بطريق شُق فوق عقار لم يكن صاحبه راضياً بالتنازل عنه وقبول التثمين من الحكومة. وقبيل وفاته وبعد رحيله كان الجدل بين مريديه عن نسكه وعن صيامه وصلاته، فلم يكن معظم من حوله وبعضٌ مِن أقرب تلاميذه يعلمون أنه كان يصوم يوماً ويفطر آخر حتى لقي ربه. لمحتُه مرة قبل وفاته بشهور بعد أذان المغرب وقد تريث قليلاً ثم نهض فمال على البرادة واختطف رشفة من الماء ثم أخذ مكانه في الصف.

وكان معتق الحربي وهو بدوي من قبيلة حرب يحكي قصة كالحُلم والأساطير، أنه كان يرعى غنيمات له في بادية حائل فعصفت الريح ذات يوم وحملته كالقشة وألقته عند الجامع الكبير في بريدة، نفض ثيابه ونهض. لم يفكر بالعودة إلى مرابعه، بل قنع بقدره ومنتهى حاله واستوطن أرضه الجديدة وعاش طوال عمره مخبتاً قانعاً.

كان الشيخ محمد العليط يجتاز خافض الرأس كل ضحى بسوق الذهب وقبة رشيد في طريقه إلى الجامع الكبير ليلقي درسه، وبين المتسوقات من النسوة والصبايا يمر كالطيف حتى يقف على عتبة المسجد فيرفع رأسه، مرة تشجع أحدهم وألمح إليه بأنه لايليق بمثله أن يجتاز بسوق

للشيطان فيه حظ ومرتع فقال: إنني من حين أخرج من بيتي حتى أعود وأنا مطأطئ الرأس، تقودني خطاي نحو غايتي ثم أعود أدراجي من دون أن أرى ماتذكره.

لهذا كان هؤلاء الأتقياء يقرؤون كثيراً في كتب التصوف وسير المتنسكين وأحوالِ القلوب ويقضي الواحد منهم وقته بين طلب الرزق من كسب يده أوفي شؤون أبنائه وبين الكتب ودروس العلم أو تراه قائماً يصلي في محرابه، وتراهم ينفرون من الكتب والمحاضرات التي تخلط الدين بالسياسة، وتعجن الوعظ بمطامح الملك والزعامة.

كان لصديقي عبدالله الحجيلان بيت تحت الإنشاء وكان يمر بمنزله كل يوم يطمئن على سير البناء ويتفقد الاحتياجات، ولكنه توقف فجأة عن جولته اليومية بعد أن تلقى توبيخاً من أحدهم لأن عمال البناء تسببوا بإزعاج المصلين في صلاة العصر ولم يجيبوا النداء، بقي على هذه الحال شهرين حتى هدأت نفسه وخفت آلامه.

وبعد أن اختار هذا الإنسان الفريد من نوعه كسب رزقه من تجارة التمور، اكتشف مرة أن واحداً من صناديق التمر عاد به المشتري، وكان يحتوي على مسامير، فقام بإتلاف كل بضاعته وكانت قيمتها في ذلك الوقت ١٤٠٨ هـ /١٩٨٧ خمسة وثلاثين ألف درهم[٩].

ولقد تصرمت أعوام وأنا أسمع بكاء أمي في مصلاها قبل الفجر بساعة أو قبل أن تأوي إلى فراشها، كانت تسح دمعاً كثيراً كل ليلة، لقد بكت أكثر من ألف ليلة وهي اليوم تنشج كسابق عهدها كما كانت أمها من قبلها، أعرف ذلك منها لأنني أجده في صوتها رغم بعدي عنها، كانت تختنق بكلماتها المتحشرجة وهي في مصلاها وكنت أصغي إليها بحزن، وإذا لمحتني واقفاً وهي

[٩] يؤسفني أن كثيراً من إخوان بريدة الذين أتحدث الآن عنهم إما أنهم فارقوا دنيانا، أو تعرضوا خلال الست عشرة سنة الماضية منذ ١٩٩٤ لتحولات فكرية عميقة جعلت من غالبيتهم اليوم من معتنقي فكر الجهادية السلفية أو من مجندي تنظيم القاعدة أو الداعمين له.إن قيام الحكومة السعودية منذ ٢٠٠٣ بسجن ثلاثة أجيال من عائلة واحدة من هذه الجماعة، الجد والابن والحفيد بتهم تتعلق بدعم القاعدة، يعكس التحول الكبير والمحزن، وهو يؤكد أن الإخوان الحنابلة الذين عرفتُهم في عام ١٩٨٥، ثم شاغبتهم وأنا منهم وجفوتهم ونبذوني ولما أزل منهم على خلاف بسيط ببعض التفاصيل منذ ١٩٩٠، ثم انسلخت منهم بشكل كامل عام ١٩٩٤، هم اليوم في طور الانقراض.

تتهيأ للهجوع أو لتسترخي قبل طلوع الفجر تقول: إنني أعرفه جيداً. إنه لم يخذلني يوماً. أنا أعرفه. إنه حبيبي.

لحظة تجلي

كانت إحدى ليالي شتاء ١٤٠٧هـ/ فبراير ١٩٨٧ ليلة مطيرة تثعب جراءها ميازيب بيوت الطين التي تقع في الممر الضيق المقابل للباب الجنوبي لمسجد حميدان جنوب بريدة. كنت لحظتها أهيم على وجهي في برزخ بين المادة والروح وعالم الغيب والشهادة، كنت واقعاً تحت تأثير موعظة للشيخ فهد العبيد شرح فيها حديث اختصام الملأ الأعلى وقصة وضع الرحمن أنامله على كتف النبي محمد. كان ابن عبيد يلقي كلماته في الظلمة[١٠] بصوت جهوري متهدج يبعث الرهبة والشعور بالجلال، كان جالساً في مصلاه . يمكنك أن تلمحه وأنت في سمت الصف إذا رنوت ببصرك إليه وهو يدفع جسمه نحو الأمام لاطئاً بالأرض. تلك الليلة سرد ابن عبيد أسماء متصوفة كبار كالجنيد وأبي يزيد البسطامي، لم يكن يتهيب أن يذكرهم أو أن يستشهد بأحوالهم ويروي تحفاً من حكمهم وفتوحاتهم. في ذلك الممر الضيق جنوب المسجد واجهت شيخاً كان قد شارف على الثمانين من آل الدباسي، كان يعيش مع زوجته العجوز وإحدى بناته في بيت على ذلك الطريق. ولما مر بي ذلك الشيخ وهو يتهادى على جانب الطريق، عصفت بي لحظتها أمنية أن أكون كهذا الشيخ الذي تصرمت حياته راكعاً وساجداً. بعد سنوات أخبرني زميل لي كان قد جاور هذا الشيخ العابد أنه كان نائماً قبل الفجر، فرأى في المنام ديك جاره الدباسي وهو ينادي بلسان فصيح أن "اتقوا الله، اتقوا الله"، قال فاستيقظت على صياح الديك نفسه[١١].

في السابق وقبل بلوغي الثلاثين كنت أجد راحة النفس بالشكوى أعقاب الصلوات وفي السجود في لحظات التجلي في العشر الأواخر بين سواري المسجد الحرام، أو في المساجد العتيقة في بريدة، أو معفراً وجهي في رمال صحراء نجد الباردة قبل طلوع الفجر. وفي السنوات

[١٠] الإخوان كانوا يفضلون إطفاء الأنوار أثناء الصلاة في الليل، ويفعلون ذلك ما أمكنهم. ولهذا ألقى فهد العبيد موعظته والأنوار مطفأة. والسر في تفضيل الظلمة أنها لحظات يتواطأ فيها القلب واللسان وتجعل المصلي أكثر إقبالا على صلاته وأقل انشغالا بما حوله.

[١١] حكاية أرويها لتكشف البعد الغرائبي ضمن سياق هذه الشهادة. ثمة قصص مشابهة تجنبت روايتها.

العشر الأخيرة وجدت بعضاً من السلوى حينما أصغي إلى قراءة المنشاوي وعبد الباسط، ولكن استمر معي ذلك الشوق العارم إلى شيخ صوفي أبوح إليه وأنثر بين يديه أحزان روحي كمريد بين يدي شيخه[١٢].

المتصوفة الأشرار

في شهر رمضان ١٤١١هجري/ مارس ١٩٩١، شهدت أروقة المسجد الحرام بمكة المكرمة أياماً من التوتر والملاسنات التي تطورت إلى اشتباكات بالأيدي بين مريدي وطلاب السيد محمد علوي مالكي الزعيم الروحي لمتصوفة الحجاز، وبين عشرات من السلفيين الذين كانوا يتنادون كل مساء ليحيطوا به قبل الإفطارحتى مضي ساعة من بعد صلاة المغرب.

كان رجال الأمن في المسجد الحرام يحيطون بالمالكي والمتحلقين حوله كالطوق، حماية لهم وإبعاداً للمتطفلين الذين تكاثرت أعدادهم يوما بعد يوم. يطوق رجالَ الأمن من خلفهم دائرةٌ أكبر من الغاضبين الذين كانوا يطلقون صرخاتهم، ويدعون إلى طرد المتصوفة من المسجد الحرام. وكان المالكي يتجاهل كل مايحصل حوله، مكتفياً بإظهار الترحاب بكل زائر ومريد يطمح للسلام عليه وتقبيل يده والقرب منه.ولأن مريديه كانوا قلقين من أن يناله أحد بسوء فقد كان حلمهم –المشوب بغضب مكتوم وتوتر مشوب بعجز وشعور بالقهر– يتهاوى تحت الشتائم التي تنطلق من كل صوب، تصفهم بالقبوريين والمبتدعة والخرافيين.

كنت وقتها في مكة ينقل إلي أصدقائي ممن لاينقطعون عن حضور تلك المشاحنات التي زادت عن أسبوع تفاصيل مايجري حيث بلغت الأحداث ذروتها بعدما اشتبك السلفيون بطلاب الشيخ المالكي وبرجال الأمن أيضا أكثر من مرة. ولم تنقطع تلك المصادمات إلا بعدما سافر المالكي إلى مكة ليقضي باقي أيام رمضان في حضرة المصطفى بطيبة.

---

[١٢] حاولت ذلك أكثر من مرة في السنوات الماضية مع بعض من رأيت فيهم شيئاً من نور الله. كان آخرها قبل أربعة شهور. ولكنها كانت مشاريع فاشلة.

تكثف تلك الحادثة التي كنت شاهداً عليها قصة السلفية الوهابية مع الصوفية والمتصوفة. ولم يكن مستغرباً أن يكون معظم المشاركين الحانقين في تلك الواقعة من نجد وسط السعودية. وإذا أردنا الدقة فقد كانت تلك الحادثة تشي بما استبطنه ذلك الاحتجاج الديني من دوافع اجتماعية ومناطقية، نبعت من الشعور بالتفوق والاستعلاء النجدي الاجتماعي والسياسي والديني على حاضرة الحجاز وأشكال الثقافة والتنوع المذهبي والعرقي الذي زخر بها منذ مئات السنين. وهو استعلاء نشأ مع الدولة السعودية الأولى وتمدد دعوة ابن عبدالوهاب حتى ابتلعت الحجاز والحرمين، وهو استعلاء ظهر فاقعاً في فتح الحجاز ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥ ، واستمر حتى اليوم بمظاهر وتجليات متعددة.

سمعت بالـ(صوفية) و(المتصوفة) لأول مرة عام ١٩٨٣ وأنا ابن أربع عشرة عاماً من صديق زاملني في متوسطة القادسية ببريدة، اسمه علي الهديب. ولأن والده كان مغرماً بالكتب وجمعها فقد كان صديقي محظوظاً بالاطلاع على عشرات الكتب التي وجد من بينها كتاب ابن الجوزي الحنبلي(تلبيس إبليس) في نقد المتصوفة. جذبني عنوان الكتاب فالتمست من صديقي أن يعيرني إياه أياماً، وقع الكتاب بين يدي ولكنني لم أستوعب منه إلا قليلاً. كانت خلاصة فائدتي من تصفح الكتاب هي أن المتصوفة عباد وزهاد قد يخرجون عن سنة الرسول وطريقة أصحابه ويقعون في الضلالة والكفر أحياناً.

بعدها بسنة تقريباً قام أحد المتبرعين بطباعة كتاب صغير كان تلخيصا لكتاب المتصوف الكبير عبدالقادر الجيلاني الحنبلي (الفتح الرباني والفيض الرحماني) لخصه الشيخ محمد بن سليمان العليِّط، الذي أصبح بعد ذلك شيخاً لي حيث درست عليه ولازمته أكثر من عام في مسجد عودة المعروف بمسجد الحميدي جنوب بريدة. ومن جامع ابن مساعد الذي يعرف الآن بجامع السكيتي بحي الصناعة في بريدة، حصلت على نسخة من كتاب العليط الذي غصت به رفوف المصاحف في شهر رمضان ١٤٠٥/١٩٨٥.كان الكتاب تهذيباً وتنقية لكتاب الجيلاني، وهو مايشابه ماقام به قبل ذلك العراقي عبدالمنعم العزي في كتابه (تهذيب مدارج السالكين). وهي سنة اتبعها متأخرو السلفية منذ منتصف القرن التاسع عشر مع بعض كتب الرقائق والمواعظ مثل منهاج القاصدين، الذي هو تلخيص من كتاب الغزالي(إحياء علوم الدين).

الهدف من تأليف المختصرات هو تبسيط الأصل وتسهيله وتخفيف لغته وجعله في متناول شرائح أوسع وتسهيله للعامة والمبتدئين في الطلب. ولكن بعد تنامي السلفية منذ قرنين فإن كثيرا من الملخصات لكتب الرقائق والتصوف والوعظ كان القصد منها تنقيتها من المآخذ العقدية التي يصعب تجاوزها أو يمكنها أن تحول دون انتشار الكتاب الأم، وهذا مايفسر عشرات الملخصات لكتاب الإحياء للغزالي.

السلف والتصوف

نشأتُ في بيئة سلفية ترضع تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عززها التزام ديني صارم منذ بلغتُ السادسة عشرة استمر لخمس سنوات، ثم بدء بالذبول والتحول أطواراً متعددة، انتهت تقريباً عام ٢٠٠٤.

منذ ١٩٨٥ حتى نهاية التسعينيات من القرن الماضي كنت أتنقل بين دوائر التدين السلفي الوهابي بنكهاته المتعددة وتوجهات متنوعة مختلفة ومؤتلفة أحياناً. وكان الحديث عن التصوف وسير المتصوفة وعجائبهم وكراماتهم وشطحاتهم حاضراً على الدوام. وذلك يعود ذلك إلى عاملين:

أولهما، أن حنابلة عظاماً فقهاء وعارفين وسالكين كانوا متصوفة، وكتبوا في التصوف مثل ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وابن رجب الحنبلي. وقبلهم الهروي صاحب منازل السائرين، وكانت أحوالهم وسيرهم تؤكد ميولهم نحو التصوف.

والعامل الثاني، أنني كنت قد اعتنقت تعاليم (إخوان بريدة) منذ ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٥. وهم متصوفة الوهابية وأكثرهم ورعاً وحماسة لتعاليم الإمام المؤسس وأشدهم تعصباً لمدرسته.يشبه إخوان بريدة ثقباً في الزمن ليس لهم من عصرهم إلا المعاصرة ومن نظرائهم إلا المشاكلة في السحنات والمجاورة في السكنى، ولكن أشواقهم ومرابعهم الروحية ومنتهى غاياتهم تقبع في الرجوع القهقرى اثني عشر قرناً من الزمان في حضرة ابن سيرين والحسن البصري وسفيان الثوري

ونفحات إبراهيم بن إدهم وأنفاس أحمد بن حنبل و محمد بن واسع ومن كان يقفو أثرهم من متأخري النساك الحنابلة وغيرهم.

ولكن الموقف من أعلام المتصوفة عند إخوان بريدة كان ملتبساً على الدوام، كان الرفض واضحاً تجاه الطرق والزوايا وتحضير الأرواح وادعاء مخاطبة الرسول وسقوط الفرائض وتخفيف الشرائع ببلوغ السالك مراتب متقدمة من الإحسان والقرب من الله. ومع ذلك فقد كانت سير المتصوفة وتفاصيل حيواتهم وبعض ماينقل عنهم من قصص وكرامات وفتوحات وحكم وقصص غريبة لها تأثير واضح ووقع حسن، ويتجلى ذلك أوضح مايكون في كتابات ابن قيم الجوزية في كتابيه (مدارج السالكين) و(طريق الهجرتين)، وفي رسائل وفتاوى ابن تيمية. ومع مايمتاز به حنابلة السعودية من نفور عقدي مذهبي من وصف أحد بالمتصوف أو الثناء على الصوفية، إلا أن كثيراً من الأحوال والممارسات في سياق الزهد أو الورع أو النسك والعبادة والإخبات والخوف من الله ومحاسبة الذات كانت تتجلى في تصرفاتهم وتقلباتهم وتطبيقهم للتدين الذي ارتضوه.

في عام ١٤٠٧هج/١٩٨٦ انقطع زميل لنا اسمه (ناصر الغصن)عن دروس الفقه التي كنا نتتبعها عند أكثر من شيخ في بريدة، وبعد أيام من الانقطاع تقفَّرنا خبره حتى باح لنا بما كان يعيشه من أحوال عصفت به. لقد انغمس في كتب السير والتراجم والسلوك، بين حلية الأولياء، وسير أعلام النبلاء، ومدارج السالكين، ووصايا المتصوفة الأوائل، ولقوة الوارد وضعف المورود– كما يقول السابقون– رقت نفسه، وأشفق عليها أن تكون عرضة للحساب والمساءلة أمام الله، حين يعلم من الدين ويعرف من الشريعة ويقرأ من العلم ويحفظ من القرآن ما تعظم به الحجة وتقوم به الشواهد على حق الله عليه، مقابل تقصيره وقلة عبادته وتواضع سره مع الله، وعجزه عن أن يبلغ بنفسه من مرتبة الإحسان مايبعث الرضى من الرحمن ويسبغ الألطاف من لدنه. فانقطع عن حفظ القرآن وتوقف عن تدارس السنة، وأقبل على نفسه يلومها ويوبخها، قانعاً بأن يقف عند تلك العتبة، وجلاً أن يكون محل لوم أو حساب. وبعد أيام قليلة قويت نفسه وفارق تلك الأحوال من الضعف والذبول، وعادت روحه أدراجها، ولازمته البسمة التي عهدناها في محياه.

كان الإخوان في بريدة شأن غيرهم من الحنابلة السلف يحرصون على قراءة واقتناء كتب التاريخ والتراجم التي تناولت حيوات المتصوفة من أعلام القرون الأربعة الأولى، مثل حلية الأولياء لأبي نعيم، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وغيرها من الكتب التي تناولت سير المتقدمين من أهل الحديث والأثر وما فيها من قصص الزهد والسلوك والتصوف السلوكي والأخلاقي مثل الورع والبعد عن الحرام والمشتبهات[١٣]، والحرص على طيب المأكل والمشرب والملبس، والعزلة عن الخلق، والأنس بالخلوة مع الله والتقلل من الدنيا والقناعة منها بالقليل. أما المباحث الفقهية والكلامية حول التصوف والإشكالات التي أثيرت حول أعلام مثل أبي حامد الغزالي، والحلاج، وابن الفارض، وابن عربي[١٤]، فإن المرجع هو كتب ابن تيمية وابن القيم وابن رجب الحنبلي، وماهو منثور من رسائل وفتاوى لأئمة الدعوة منذ محمد بن عبدالوهاب.

وقد كان من إخوان بريدة من عاش حياة من الزهد والورع والعبادة والانكفاء على النفس قريبة جداً من الحيوات التي تروى عن أعلام كبار متقدمين من أئمة السلف الأوائل. مثلما كان عليه محمد بن عبدالعزيز السليم. الذي عاش عقوداً من حياته التي تجاوزت السبعين عاماً ولم يسمح لنفسه بأن يأكل إلا من كسب يده. فكان يجيب الدعوة ولكنه لايأكل خارج بيته ولا يشرب

---

[١٣] يتجنب إخوان بريدة إدخال الصور إلى بيوتهم، لأنها تحول دون دخول الملائكة لبيوتهم، كما جاء في الحديث النبوي، وهم يرون كل صورة سواء كانت على صندوق او علبة صلصة أو كتاب، أكانت مجسمة أم ذات ظل أم صبغاً وتلويناً ونقشا داخلة في التحريم، وقد وقعت قصتان لاثنين من الإخوان تسربت صور إلى بيوتهم من دون علمهم وشعروا بثقل ظلها متجسداً بغمة روحية وقلق وتشويش أثناء النوم، وهو مايبدو نوعاً من النقاء الروحي والصفاء الذي خدشته تلك المنغصات، حيث تسببت تلك الصور بأذى مادي ترجمته تلك الأعراض، ومثلها قصة حصلت مع الشيخ صالح بن رشيد الفراج، حيث كان يرى في المنام كلباً ينبح في وجهه، وبعد أيام من التقصي هدأت نفسه بعد أن وجد جهاز راديو كان يخفيه أحد أبنائه في غرفته ويستمع منه إلى الأخبار والأغاني. ولم تهدأ روحه حتى أتلف الجهاز. عند الإخوان في بريدة فإن الراديو والتليفزيون والجرائد هي من وسائل اللهو المحرمة .

[١٤] أبو حامد الغزالي هو إحدى الشخصيات الإشكالية حتى عند ابن تيمية، فقد اختلف كلامه عنه في أكثر من موضع في رسائله وفتاواه، وامتد موقف الشيخ من أبي حامد إلى الشيخ محمد بن عبدالوهاب ومدرسته، وهذا ماجعل من موقف إخوان بريدة من الغزالي ومن كتبه أكثر تسامحاً مع تحفظهم على فكره وفلسفته ومآخذ عقدية خطيرة رأوها فيها، على غرار موقف أئمة الدعوة النجدية. وهذا الموقف من الغزالي المتسامح نسبياً خلافاً لمحيي الدين ابن عربي وابن الفارض، والعفيف التلمساني والحلاج. فقد كان هؤلاء الأربعة رموز الشر في التصوف المنبوذ وأكبر المجدفين . وكان الرأي السائد خليط من الأحكام فهم إما خارجون عن الملة أو ذوو نحل باطنية وحلولية زنادقة.ومن البديهي أن كتب هؤلاء الأعلام وأدبياتهم لم تكن بين أيدينا وغير مسموح ببيعها أو تداولها، فكنا نقرأ عنهم بواسطة أئمتنا ونقد مخالفيهم من المعاصرين.

فنجان قهوة، وقد عرف كل أحبابه هذه الخصلة فيه، ولهذا لم يكونوا يحمِّلونه مالا يطيق، ولا يحرجونه بـ"التلزيم".

نفور حتمته البيئة القاسية

ينفر حنابلة وسط الجزيرة العربية من أي ميول صوفية تتمثل في التجافي الشديد من أي ممارسات أو عادات تبدو دخيلة وذات منبع صوفي، نجد شاهده في الجفول من جماعة التبليغ والدعوة، وهي جماعة تميل نحو التصوف والتخفف من أثقال الدنيا، ومع أن كثيراً من مواعظهم ممزوجة بالجبرية ونفي السببية وجعل مرد كثير من الأحداث والتغيرات في الآفاق وفي الأنفس والاجتماع إلى قانون "الاقتران"، إلا أن التبليغيين النجديين يبقون لفترات طويلة محصنين ضد تواكل العجم ودروشتهم بحيث تبقى تلك الأفكار والمثل مفصولة عن واقع الحياة الذي يعيشونه ويكابدون فيه طلب الرزق وكسب العيش.

في عام ١٩٨٦ كنت شاهداً على واقعة مؤلمة، حين أُخضع واحد من زملائنا، كان يحضر جلساتنا في القراءة والمدارسة، ويحرص على ملازمة حلق التعليم الديني في المساجد، ولكنه اقتيد مرغماً ومكبلاً لعلاج في المصحة النفسية، بعد أن انكفأ في المسجد لأكثر من شهرين متفرغاً للعبادة وتلاوة الأذكار وأهمل بيته وأبناءه، وقد تلقى أحد أصحابي الذي لم يحتمل ذلك الموقف المحزن صفعات ساخنة من خال صاحبنا عبدالله، حيث كان الخال مشرفاً على مايحدث، وقد انخرط صديقي في معركة غير متكافئة لتخليص هذا البائس من قيوده بعد أن أقتاده العاملون الأشداء في المصحة النفسية إلى الباص.

كانت بريدة مثل غيرها من مدن السعودية تعج بعشرات أو مئات من أولئك المستهترين الذين تسببت لهم المخدرات والخمور بضياع بيوتهم، ولكنهم لم يُخضعوا لمثل تلك الإجراءات من قبل أهاليهم، لأن الخطر كان يكمن في أن تحظى تلك الدروشة- التي تجسدت في صاحبنا(عبدالله)- من يشجعها ويسمح بفشوها. فكان لامناص من القضاء عليها، في بيئة لاتؤمن إلا بالصلاة والعمل. كان صاحبنا عبدالله مشروعاً فاشلا لمتصوف تخلى عن الدنيا، ولهذا تخلى عنه الجميع من أولئك الذين جمعته بهم الألفة الدينية والحب في الله ومجالس الذكر،

فالجميع كان يصادق على تلك الخطوة التي قام بها أقاربه، والجميع كانوا سدنة لتلك الأخلاق العملية في بيئة صارمة تحتم على أبنائها العمل وطلب الرزق وإن قل المردود أو كان مصيرهم النبذ.

وهذا ماكان ينعكس في أولئك الأطفال الذين لم يجاوزوا الخامسة من العمر وهم يطوفون منذ التباشير الأولى للصباح أيام الخميس والجمعة بين دكاكين قبة رشيد والوسعة وسط بريدة القديمة وينادون بأعلى صوتهم بكلمات لاتكاد تبين عن بضائعهم من المناديل والمناشف والجوارب، وتصيبك الدهشة من ذلك الطفل الذي يملك والده الملايين وهو يماكسك على النصف ريال ويوضح لك بطريقة أخاذة تأسر القلب أن الثمن الذي تقترحه لايفيده ولا"يخارجه". وهي مظاهر تكاد اليوم تتلاشى بعد التحول الاجتماعي والثقافي والأخلاقي الذي يعيشه المجتمع منذ أكثر من عشرين عاماً.

إن جذور تلك الأخلاق العملية عند الحنابلة المتأخرين بعد الشيخ محمد بن عبدالوهاب تعود إلى العهد الأول والنصوص المؤسّسة في القرآن والحديث، ولكن ما امتاز به حنابلة نجد هو محاولة تنقية وإزالة الشوائب في محاولة للعودة إلى الأصول الأولى.

ويشير راينهارد شولتسه في كتابه "الإسلام والسلطة" إلى انعكاسات الثراء على المجتمع النجدي في العقود الأربعة الماضية بعد دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب، يذكر أن " المثل الإحسانية القديمة لم يتبق منها سوى السلطة الأخلاقية لعلماء الدين الذين أصبحت مهمتهم الرئيسية توفيق تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب مع ثقافة الثراء الجديدة؛ فقد حلت دعوة الشيخ هذه المشكلة ضمن إطار المفهوم التقليدي بأن اعتبرت الثروة والقوة نعمة من الله يجب قبولها"[١٥].

وتكشف رسالة للشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب نشرت في الطبعة الأولى من مجموعة "الدرر السنية"[١٦]، عن مرارة شديدة ألمت به إثر انتقاد حاد وجهه له واحد من طلابه،

---

[١٥] القصيمي بين الأصولية والانشقاق، يورغان فازلا – دار الكنوز الأدبية – لبنان ٢٠٠١ ص ٩٤.

[١٦] الرسالة موجودة في كتاب الجهاد من الدرر السنية، طبعة العام ١٩٦٤ المعروفة بطبعة الملك سعود.ولكنها أزيلت من الطبعات اللاحقة.

وفيها يذكر ابن حسن كيف أن "ابن عتيق" عاب عليه انشغاله بزراعة أرضه والحرث والتعلق بأذناب البقر وترك الجهاد. وفي الرسالة يؤكد ابن حسن على أهمية الأكل من كسب اليد والاستغناء عن الناس، مستشهداً بوصايا الرسول التي تشجع المسلم على العمل وتحض على الأكل من كسب اليد، ويسرد من أقوال المتقدمين مايؤكد على أهمية الاستقلال الاقتصادي للفقيه، حتى لايكون ممسحة يُتمندل بها كما عبر سعيد بن المسيب ذات مرة.

الرسالة تعكس إحدى سمات الشخصية الوهابية الجوهرية التي كانت تركز على جانب العبادة والعمل، وتنفر من الرهبنة والنسك الصوفي.

ويأتي ضمن هذا السياق تفسير الشيخ محمد بن عبدالوهاب للآية رقم ٩٧ من سورة النحل " من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون""، وهو أن الحياة الطيبة ليست قاصرة على السعادة الروحية والرضا، بل تشمل ماهو أوسع وأشمل فالحياة الهنيئة الرغدة والثراء الذي ينعم الله به على عباده ويقوم المسلم بأداء حقه، هو أيضاً من طيب الحياة المعجلة التي وعد الله بها عباده المؤمنين[١٧].

هذا النزوع نحو المزاوجة بين طيب الحياتين الدنيوية والأخروية عند المسلم الصالح، يفسر أيضاً سرّ الحظوة الكبيرة التي يتمتع بها أثرياء الصحابة مثل الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف في الثقافة الدينية لدى عامة النجديين. فإنه فضلا عن كونهما صحابيين من السابقين، إلا أن جاذبيتهما نبعت من كونهما كانا مثالين ملهمين للجمع بين التقوى ورغد العيش والثراء. خلافاً لغيرهما من كبار الصحابة ممن لم يكن لهم حظ من الدنيا.

إن استعراضاً مختصراً لمعظم التراجم لعلماء نجد المتأخرين بعد القرن الثامن عشر يوضح انشغال كثير منهم بالتجارة، ولم يكن من غير المألوف أن يكون كثير من تجار العقار بعد الطفرة في السبعينيات من القرن العشرين هم من فئة العلماء أو الشيوخ الذين جمعوا بين الإمامة والخطابة والإفتاء والقضاء أحياناً، وبين الثراء الفاحش.

---

[١٧] كتاب «التفسير» وهو الجزء العاشر من الدرر السنية، انظر مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب

لقد اعتبر ذلك دائماً إحدى علامات رضا الله عن عبده، مشروطاً بقيامه بواجب تلك النعمة كما في القرآن " وأحسن كما أحسن الله إليك". جاء كل ذلك في سياق من البساطة التي نشأوا عليها والتحفظ من إظهار أمارات الغنى والاعتدال في المسكن.

لقد كان بعض من اشتهروا بالتقوى والعبادة والحسبة والعلم بالدين هم ممن عرفوا بالثراء كما كان الحال مع الشيخ عبدالعزيز بن مرشد والشيخ أبو حبيب الشثري والشيخ حمود بن عبدالله التويجري. وكان الشيخ فهد العبيد كما سيأتي واحداً من أشهر الشيوخ المعروفين بالزهد والتقوى ، ولقد أمضى معظم سنوات حياته لايركب السيارة ولم يسمح بإدخال الكهرباء إلى بيته، ولكنه كان أحد الأثرياء ومن تجار العقار، وبلغ حداً من الكرم والسخاء كان يقوم فيه بسداد ديون بعض مريديه ومساعدتهم في تغطية تكاليف الزواج أو شراء سيارة. وهكذا الحال مع فهد العشاب الذي توفي عام ١٩٩٠ مورثاً عشرات الملايين، وقد كان يملك حياً بأكمله غربي بريدة وهو حي الخبيبية ومزرعة كبيرة في المليدة بيعت بعشرات الملايين وعقارات شاسعة. ولكن العشاب كان يلبس بتواضع ويأكل مايسد رمقه، وبلغ حداً من الورع امتنع فيه عن دهان الواجهة الخارجية لمنزله لأنه كان يرى في ذلك إضاعة للمال.

عبدالله الدويش

ولد عبدالله بن محمد الدويش في الزلفي. وتلقى العلم في بريدة على علمائها منذ أوائل السبعينيات، ثم استقر بها حتى وفاته، في الشيحية شمال غرب بريدة قبل مغيب شمس يوم الأحد السابع والعشرين من شهر شوال ١٤٠٨هـ/ ١٢ يونيو ١٩٨٨، عن عمر يناهز السابعة والثلاثين.

كانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها إثر تدهور صحته بأسبوع تقريباً، صام الستة من شوال في مكة، ثم قام بزيارة أقاربه في الزلفي، وبعد أسبوع من استئناف دروسه في مساجد بريدة ساءت صحته منتصف الشهر. لا أظنه عرفني يومها . انتظرته للسلام عليه وهو خارج من الجامع الكبير في الخبيبية بعد صلاة العصر، رأيته متكئاً على اثنين من الأخوان وبشته الأبيض

الرقيق مرتخٍ فوق منكبيه الناحلين، خطوت نحوه فمال علي بجسمه الذاوي وقامته الفارعة وأنا أغالب قصري لأتمكن من تقبيل جبينه، اعتمدت على أطراف أصابعي ولكنني أشفقت عليه وترددت فدخلت بينه وبين بشته، كان بشته يضوع بالبخور، وكانت روحه الأسيفة الناسكة تنثر شذاها في كل ماحولها. كان يتمتم كلمات بصوت لايكاد يسمع ، فاتر العينين لا يكاد يقوى على الوقوف.

تعرض لأزمة نفسية وصحية مرتين خلال خمس سنوات. وفي أيامه الأخيرة كان عاجزا حتى عن أداء الصلوات. وفي المرة الأولى عام ١٩٨٣، استمر المرض معه شهرا كاملاً. كان سليم البدن معافى ولكنه كان قد نسي كل شيء. وحينما كان أحبابه يتلطفون به ويلمحون إليه أن وقت الصلاة قد دنى كان يجيبهم بأنه ليس مطالباً بها وأن الله قد أعفاه من أدائها.

أثناء دفنه كان الجبيلي وهو إمام مسجد في الشماس غرب بريدة واقفاً مع المشيعين، زلت قدمه فهوى في قبر محفور مجاور للشيخ، بعد ثلاثة أيام كانت تلك الحفرة مرقد الجبيلي.

"أنا أخطئ عدد أنفاسي، فلا طاقة لي باقتحام الأسواق" قالها الدويش مرة وأنا أقترح عليه أن يسلك الطريق الأخصر إلى مسجد الحميدي جنوب بريدة بعد أن ينصرف من حلقته في مسجد السكيت في حي الشماس. . يقول الرشودي" بقي عبدالله سنوات في غرفته بمسجدي لايعرف إلا الزيتون وخبز التميز، كأني أراه وهو يحمل الرغيف بين يديه". وكان الدويش يقوم أربع ساعات من الليل ساجداً وقائماً، ويقضي معظم نهاره في التدريس ، وفي اوقات فرغه كان يلجأ إلى استذكار حفظه من القرآن أو ينشغل بالذكر والتسبيح. كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وكان يعيش حياة بسيطة للغاية متقشفاً متواضعاً. وإذا كان يوم الجمعة لبث في مصلاه بعد الفجر، وبعدما ترتفع الشمس قيد رمح يصلي ركعتين ثم يذهب إلى بيته ويأكل فطوره أو يعود بعدها بساعة إلى الجامع ويصلي لله ساعات ثلاثا أو أكثر حتى يدخل الإمام خطبة الجمعة.وكان مصدر رزقه من تدريسه في المدرسة الدينية، ومن أوقاف خصصت للمدرسة وللإخوان لعلمائهم ولطلبة العلم فيهم الذين يتفرغون للدراسة والتعليم. وكان له متجر عطور شرقية صغير

في سوق المجلس ببريدة شاركه وناب عنه في الإشراف عليه عبدالله البراهيم السعودي، وهو من طلابه وقد رحل هو الآخر في حادث سيارة عام ٢٠٠٣ .

فهد العبيد وهابي متصوف

صيفَ ١٤٠٦ / ١٩٨٥ كان إخوان بريدة فئتين كبيرتين، فهد بن عبيد آل عبد المحسن بمريديه، وعبدالله الدويش وطلبته، يجسر الهوة بين هاتين الضفتين محمد الفهد الرشودي وعبدالله القرعاوي، وأسماء أخرى من النوَّاب(المحتسبين المتطوعين) والتجار لهم وجاهة ونفوذ واحترام يأتي في مقدمتهم صالح البجادي والجطيلي وفهد العشاب[١٨]، وكانت المدرسة الدينية تحتضن أبناء الجميع.

في ضفة الدويش يأتي شيخه محمد العليط وصالح الرشيد الفرج الإمام الأسبق للجامع الكبير، ونجباء من الطلبة لهم حلق صغيرة مثل سليمان السويد وعبدالله البراهيم السعوي وصالح العِمِر وبيوتات من أهل الخبيبية. معظم أهل الخبوب والمريدسية وخب الثنيان، وخَزَّانُ الأخوان من العوائل الكبيرة مثل السْعَوي والعُمر وأخوان الفاخرية هم في الأغلب أكثر التصاقاً بفهد، يليهم عوائل أصغر ذات حظوة مثل الدرع والحسني. وقد تكفلت عالتا الحْسِنِي والدَّرْع لسنوات بعشاء يقدم في مجلس وعظ فهد ليلتي الاثنين والخميس، لايحضره إلا خاصة مريديه، ولأبناء هاتين العائلتين منزلة لايدانيها شيء عند فهد، بلغ من تدليله لأطفالهم أنه كان يدخر حلوى (الصعو) والملبَّس الفاخر لهم عند زيارتهم له. كان يدفنها تحت أكوام الورق والظروف على يسار مقعده في ركن مجلسه الضيق بمنزله الطيني الواقع جنوب بريدة شمال مسجد ابن خضير.

كان فهد بن عبيد أبيض البشرة الضاربة إلى الحمرة، ضخم الجسم، محدودب الظهر قليلاً، تملأ وجهه لحية بيضاء قد انفلقت فرقتين وانسابتا خصلتين مما يلي ترقوته على ناحيتي صدره، له محيا أخاذ يزهر بحمرة وخطت وجنتيه وعينين خضراوين نافذتين كعيني صقر،

[١٨] وقد فارق هؤلاء دنيانا من سنوات.

وحواجب عظيمة. ربما كان في يفاعته غاية في الوسامة[١٩]. ذكر لي فهد عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧ في بيته أن الشيخ صالح الخريصي أكبر منه بخمس سنوات، وقال: كانت حجتي الأولى وأنا في السابعة عشرة وجيش الأخوان يومها في مكة. مرة كنت عنده فأمر خادمه محمد الجردان بأن يحضر له كيساً أخرج منه نعلين (زبيريتين)[٢٠] فُصِّلتا لقدمين ضخمتين وقال: إنهما كانتا آخر نعلين لبسهما. كان يمشي محتفياً فكوَّنت سنوات من الاحتفاء في أسفل قدميه طبقة متصلبة من الجلد كانت سمتاً واحداً ممسوح الأخمصين كالخف.كان بإمكانه أن يقف حافياً ساعة كاملة فوق طريق معبد أو على الرمضاء في هاجرة تجاوزت حرارتها خمسين درجة. في حالات نادرة رأيته يخلط بياض لحيته بصبغ خفيف كستنائي اللون[٢١].

مرة أظهر لي (الاخ) كما كان أحبابه يصفونه، في تلك الزيارة نظارة قال إنها عنده منذ ثلاثين عاماً \"ولكنني لا أرى اليوم بها شيئا\".إذا صافحت فهداً ضاعت يدك في كفه، وإذا دنوت

---

[١٩] من المهم أن يحصل القاريء على صورة للأشخاص الذين يقتحم تفاصيل حياتهم ويقوده الكاتب إلى خفاياها. ونحن لانملك لفهد العبيد صورة فوتغرافية. من المهم أن نعلم أن فهد العبيد كان يتمتع بوسامة وبهاء جسماني يندر وجوده في علماء الدين من منطقة نجد.ومثل هؤلاء يدركون جيداً ماذا يعني أن يتحدثوا عن الجمال وعن الحور العين. كان فهد حصيفاً بضرب المثل بصبايا اشتهرن بالجمال لينهض بهمم المستمعين. وهو لذكائه كان يختار عائلتين من بريدة يشكل ذكرهما معاً نوعاً من التسوية والترضية لطبقتين اجتماعيتين من مريديه من القبليين والعوائل الأخرى من حاضرة بريدة. وبريدة التي نتحدث عنها كلها عن بكرة أبيها حاضرة. خلافاً للتحول الكبير الذي عرفته منذ الأربعينيات من القرن الماضي، والموجة الثانية من الهجرة إليها الممنهجة التي رعتها الحكومة منذ منتصف تسعينيات القرن الماضي.

[٢٠] تسمى النجدية أيضا، تصنع من الجلد، ونسبتها إلى الزبير جنوب العراق لسبب لم يتضح لي حيث تتنازعها النسبتان.انظر:

بندر الحمدان، النعال الزبيرية حذاء بسبع أرواح.جريدة الرياض.٢٤ مارس ٢٠٠٦.

http://www.alriyadh.com/2006/03/24/article140892.html

[٢١] احتمال الأذى وتجشم المزعجات في الحر والقر لايقوم به إلا ذوو العزيمة الكبيرة، ومن لديهم منزع قسوة نحو الذات وأطرها، ولهذا كانت تلك الصفات الجسمانية لفهد العبيد الناتجة عن عزيمة نفسية تتساوق مع سيطرته الهائلة على مشاعره وتحكمه بعقالها، مثل موقفه تجاه من يفقدهم، و تجليات تلك الملكة وتأثيرها الهائل في كل من حوله. تشير الوقائع التي سردتها إلى نزوع صوفي عند فهد كان يميزه عن كل من عرفتهم نجد من الوهابيين المؤثرين ذوي الحظوة الدينية والمكانة عند الملوك والأسرة المالكة، ذلك النزوع المنبعث من رغبة واعية بأطر الجسد وإخضاعه لسلطة النفس وتحكم الباطن. وليس غريباً مايقال من أنه كان متمنعاً فترة من الدهر على الزواج ومفضلاً أن يبقى خفيف الحاذ في شبابه. وقد أمضى فهد السنوات العشرين الأخيرة من عمره بعد وفاة زوجته ورفيقة عمره وأم أولاده عازباً. وهو لم يعرف التعدد طوال حياته حسب ماأعرف.

منه أكثر في أيام القيض وثوبه الخام ينضح بعرقه لم تكد تشم منه إلا شذى البخور ونفح العود الهندي الفاخر.كان صاحب دعابة أحياناً يطلقها في لحظات غضبه. أكثر الأشياء التي تستفزه أن ينهمك في قراءته على جلسائه من أوراق أمضى ساعات وهو يكتبها ويكون من بينهم من لايصغي أو يحدق في الأشياء حوله. دنا منه مرة واحد من المقربين منه وهو عبدالعزيز السيف بعد انتهاء جلسة الضحى وذكر له حاجته إلى رقية "قران" لعنز[٢٢] عنده تعسرت ولادتها، فقال له فهد مازحاً "عجيب أمرك ياعبدالعزيز،أمس امرتك[٢٣] واليوم عنزك".

كان يكتب مواعظه بخط يده بأقلام خاصة وبحبر أزرق يشكلها باللون الأحمر، ولكن يعسر على غيره قراءتها. مرة أخرج لي ورقة وقال لي اقرأ، كانت قصيدة مدح وإطراء فيه أرسلها من الرياض الشيخ علي الحواس وهو كان يرى نفسه ابناً لفهد حيث رعاه الشيخ منذ صغره. وبعدما انتهيت أخذها ومزقها، ولم يعلق بشيء. بعد أيام تكررت القصة مع شخص آخر، طلب منه أن يقرأ القصيدة عينها ثم أخذها ومزقها.

كان فهد العبيد بارعاً في استلاب قلوب من يرى فيهم الذكاء والنجابة. أسلحته الفتاكة هي الغموض والكرم اللامحدود والتدليل، والمخطوطات والكتب التي يندر وجودها. لاتمنعه منزلته وقدره الكبير من أن يقوم بتقشير البطيخة لك وأنت في عمر أحفاده. كانت تلك حبائلَه التي لاتخطيء فريستها، بعد أيام قلائل من معرفتك به ومحبته لك ستجد أنك غارق في بحر نعمته، وترى في كل من حوله أثر رضاه عنك، وحينها عليك أن تتهيأ للمطلوب منك: مريداً متبتلاً في محرابه. وإذا أشاح بوجهه عنك عبس في عينيك عشرات من الأتباع الحانقين، وبعد انتهاء مجلس الضحى ترى قاطرة من مريديه ينتظر كل واحد منهم دوره لينفث في أذن فهد تقريره الإخباري عن كل ماسمع ورأى في الأربع وعشرين ساعة الماضية: عن حادث سيارة عند المستشفى المركزي، أو شجار بين اثنين في الوسعة، وعن امرأة كسعها[٢٤] سفيه على مؤخرتها في

---

[٢٢] ماعز.

[٢٣] أي امرأتك.

[٢٤] الكسع: أن تَضْرِبَ بيدك أَو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أَو شيء

قبة رشيد، أو خباز شوهد وهو يعجن الطحين بقدميه، أو شتيمة قيلت في شخصه، فلم يكن غريباً أن يلِمَّ بموجز الأربع وعشرين ساعة الماضية قبل أذان الظهر.

قال لي مرة: طلبت العلم على الشيخ العبادي وحفظت عليه كتابي فضل الإسلام، وأصول الإيمان للشيخ محمد بن عبدالوهاب".لكنه كان يذكر شيخه عبدالله المحمد السليم أكثر من شيخه عمر وهو شقيق عبدالله السليم وأصغر منه. كان فهد يحبه ويفضله على أخيه في الزهد بالدنيا. ويذكر أن بشت (عباءة) عبدالله كان خلقاً لايساوي شيئاً من الدنيا.

ولفهد العبيد كلمات تناقلها الناس من بعده حتى اليوم، ولكنهم كثيراً ما يخطئون في نسبة أشياء إليه هي في الحقيقة لأخيه إبراهيم، من كلماته الشهيرة بين الإخوان ذكره كثيراً للحية سليمان اليعيش في سياق التفضيل والنفاسة، ومنها عبارات في غاية الطرافة، أطلقها وتناقلها الناس خارج حدود المنطقة الوسطى، مثل ضربه المثل لجمال بنات آدم بحسناوات المشيقح وبنات الربدي حين يأتي الحديث عن حور الجنة وجمالهن الخلاب. عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥ سمعته يقول "لو أن الله في عُلاه سأل الحمار اللي ينهق ويصوِّن: ياحمار، هل الأرض تدور حول الشمس؟ لقال الحمار: وعزتك وجلالك لقد كذبوا". وهذه العبارة شُهِرت عنه وتكررت منه مراراً، وقد سمعتها على شريط كاسيت عند صديق لي في الرياض عام ١٤١١، وصواريخ صدام تهبط على الرياض.

من إخوان بريدة أفراد مستقلون ولكنهم بقوا موطناً للمشورة والتماس الحكمة عند الشدائد،وظهور الشقاق، مثل محمد العبدالعزيز السليم. آخرون مثل عبدالكريم الحميد يزيد معجبوهم وينقصون حسب المواسم، لم يكن لعبدالكريم عام ١٤٠٦ هـ/١٩٨٥ إلا اثنان من المحبين في أجواء من النبذ والهجران، فمنذ أن بدأ الخلاف بينه وبين شيخه فهد العبيد عام ١٤٠١ هـ/١٩٨٠ حول كروية الأرض ونزول المطر من السحاب، مروراً بمذكرته العلوم العصرية والآلات السحرية عام ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣ وأصحابه في تناقص. ومنذ العام ١٤١١ هـ/١٩٩١ بدا أن سحر شخصيته وطريقة عيشه تخلب ألباب الشباب، حتى بلغت ذروتها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر[٢٥].

---

[٢٥] انظر الحاشية رقم ٤.

من هؤلاء محمد العبدالله أبا الخيل الذي تقدم ذكره في هذه الشهادة المعروف بـ(ولد أبو ركعة). وقد كتب كراريس بخط يده، كانت ردوداً على ابن سعدي في حكم استخدام مكبر الصوت للصلاة والأذان، ورد على الألباني في دوران الأرض حول الشمس وكتب مذكرة انتقد فيها سيد قطب في مواضع عديدة من ظلال القرآن، وكتب عن الكنديشنات"المكيفات\" والقواطي" المشروبات الغازية. كان يكتبها له محمد السليم ثم تنسخ ويجري توزيعها[٢٦].

هذا التصنيف محاولة لتوضيح التمايزات التي كانت تعج بها جماعة مغلقة على ذاتها، وهي فروق مع أنها لاتكاد ترى بالعين المجردة ولكنها لعبت دوراً كبيراً في انقسامها على نفسها، وإلا فإن الأفكار الرئيسة التي تنتظم عقدهم وتلم شملهم وتجعل منهم لوناً مختلفاً هي موضع إجماع، وكثير من الأخوان كانوا يتتلمذون على الدويش والعليط والرشودي ولهم حظوة عند فهد العبيد في الآن نفسه. ولكن العكس ليس صحيحاً دائماً، فإنه باستثناء وجهاء الجماعة الكبار فلا أعرف أن أحداً من عامة الإخوان أو من شبابهم كان من المقربين إلى فهد ويحظى بمكانة خاصة عند الشيخين الدويش والعليط.

يغلب على الفئة التي يتزعمها العبيد ولاء عميق له، يتعاملون معه كما ينهج أتباع شيوخ الطرق، أحياناً يروق لي وصفها بأنها طرقية حنبلية بـ"تجميع نجدي وهابي"، والناس عند هذه الفئة يجري تصنيفهم على حسب قربهم وبعدهم من الشيخ ورضاه عنهم، فهناك خاصة، وخواص، وجليس وهناك محب، ومبغض ويأتي في أدنى المراتب الضد.وتلك منزلة منبوذ صاحبها.عام ١٤٠٩ هـ/١٩٨٨ استطاع صديق قديم بعد عصف ذهني قمنا به سوية أن يحصر طبقات الناس عند فهد ومريديه فبلغ بها عشر طبقات. كانت فكاهة ولكنها حقيقة.كان قدري أن أمر ببعض من هذه الطبقات، فمرة كنت من الخواص وأخرى من الخاصة، وفي لحظات كلمح بالبصر نعِمتُ بامتيازات خاصة الخاصة، ثم هويت إلى الأسفل حتى كنت لفترة عدواً من الأضداد الذين يدعى عليهم في مجلسه ويؤمن الحضور على هلاكهم.

سبب دعاء فهد على بعض من أحبابه السابقين عتب وخيبة أمل أخفق في دفنها بين جوانحه فعبرت عن نفسها بتلك الطريقة.

---

[٢٦] تقدم ذكره في صفحة ٣.

وفي أوائل الثمانينيات تعرض فهد لانتقاد من بعض الإخوان، بعد أن شاع أنه يقيم صلاة الجماعة في بيته مع بعض أتباعه، وكانت تلك من فهد جرأة كبيرة وأمارة على احتفاظه برؤية خاصة حول المقصد الشرعي من الصلاة والغاية السامية منها، فهو لم يكن راضياً عن واقع المساجد ولا عن التحول الكبير بعد تمدد الإسلام الصحوي، الذي كان إعلاناً بانقراض التدين الحنبلي الوهابي البسيط وتصور دور المساجد وطريقة بنائها وتصميمها. وقد تراجع فهد بعد فترة من الضغوط موزعاً صلوات الفريضة بين مسجد حميدان ومسجد ابن خضير، حيث تقع بيته في منتصف المسافة بين المسجدين.

وتديُّنُ هذه الفئة التي تتبع فهداً وتحذو تعاليمه يجد مصادره في سلوكيات بعض من مطاوعة نجد المتأخرين، ولكن جذوره منثورة في تراث ابن الجوزي وابن رجب وابن القيم مثل كتاب طريق الهجرتين، وبعض من نصوص ابن تيمية في السلوك، وفي وصايا لعبدالقادر الجيلاني الحنبلي وغيره، تفصح عن هذه الميول غبطة بعبارات متصوفة أوائل كانوا يعتمدون الذوق ويقدمونه على العلم، ويفصلون بين البصيرة والعلم، فهذه الفئة تؤمن بأن صاحب البصيرة قد يهتدي إلى حل معضلات المسائل العلمية ومشكلاتها الكبرى وتستغلق عقدتها على العالم المتبحر، هي شذرات من هنا وهناك أسعدت بعض الكسالى ليعتذروا بها عن التفقه بالشريعة وفق الأصول المتبعة في الطلب، مع تهوين لايجاهرون به للتفقه على الشيوخ ولكنهم يكشفون عنه في جلسات الصفاء وبين المريدين والمستجدين من الأتباع. لايمكن فصل رؤيته عن صلاة الجماعة كما سبق عن قناعته الأخرى في كيفية طلب العلم وتحصيل فقه الشريعة، من دون الحاجة إلى شيوخ وفقهاء يلازمهم الطالب مستدلاً بآية البقرة :(واتقوا الله ويعلمكم الله).وهي رؤية لم يكن يكشفها لأحد من الشباب الذين يحبونه ويألفون مجلسه إلا بعد أن يكونوا قد قطعوا أشواطاً تهيؤهم ليكشف لهم رأيه.

ومع أن الإخوان بجملتهم يقارب تدين عامتهم وخاصتهم تدين البربهاري الحنبلي، جفافاً لا رواء فيه، إلا أن فهد العبيد كان أقرب مثال والأكثر تطابقاً مع تلك الشخصية المثيرة. الدويش نفسه كان لديه نوع من الاعتقاد بأن صاحب العلم القليل الناسك قد يهتدي إلى فك مغاليق صعاب المسائل التي تستعصي على عالم أكثر تبحراً. في شتاء ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ سأله سليمان العلوان وكنت حاضراً في مسجد العناز عن عبارة ذكرها أبو بكر الجزائري في تفسير

القرآن أن "الله واسع العلم والذات" كان الإشكال في "الذات"، فقال الشيخ: لا أدري اسأل صاحب بصيرة، وبقيت إجابة مبهمة. وبعد أيام سأله الدويش هل سأل عنها كما أوصاه فقال سليمان: لا. لم أعرف من تقصد. قال اسأل عنها عبدالله البراهيم القرعاوي. وهذه النزعة تسربت من آراء منثورة لابن تيمية وابن القيم، في معرض الحديث عن السلوك وأحوال القلوب.لكنها كانت قشرة لم تبلغ الأعماق، ونبتة في غير أرضها.

بعض من محبي وطلبة الدويش والعليط لهم علاقات ود وثيقة بفهد العبيد، وآخرون لايزورونه إلا في المناسبات الكبرى مثل عيد الفطر والأضحى حيث يقضي ضحى يومي العيد في حوش المسيطير بـ(رواق) حين كان في صحته ونشاطه قبل أن يثقله المرض، وآخرون كانوا يرونه فقط في مجلس وعظه في مسجد ابن زعاق قبل توقفه أواخر ١٤٠٦هـ/١٩٨٦ ولا يزورونه في بيته، وآخرون لاصلة تربطهم به. أما من قادته خطاه الأولى إلى مرابع الدويش والعليط فقد كان خليقاً به إذا اعتنى بنفسه وأسعده الحظ واجتهد أن يكون عالماً. لأن الأجواء كانت تساعده على ذلك، وطالب العلم كان له مكانة لايعدلها شيء. كان طالب العلم ضمن هذه الفئة مدللاً، والحنان والعطف يتناوحانه. ومع كل ذلك كان فهد يتمتع بسطوة على الجميع.

كانت كبرياؤه تحول بينه وبين الاعتذار عن عبارات أطلقها تسببت بقطيعة معه وهجران بعض الإخوان له سنوات طويلة. ولم يكن مستعداً بأن يقوم بما هو أكثر من امتداحهم ليمحو مامضى، ولهذا كانت روحه تثقل هيكله وتضعضع بنيانه.

كانت نفسه العظيمة تمور كالبركان وتَحْطِمُه من الأعماق. فبعد أن دنا منه ابنه الأكبر عبدالرحمن وهو في مجلس الضحى صيف ١٤٠٩هـ/١٩٨٩ يقرأ على زواره بعضاً مما كتبه، أسر إليه عبدالرحمن في أذنه "إن أخي عبدالمحسن توفي في حادث مروري على طريق سدير" فلم يقطع فهد قراءته، بل أكملها وبعد أن انتهى أعلن بكل طمأنينة للحاضرين بأن " ولدي عبدالمحسن توفي اليوم ". كان قد فقد في كهولته أعز صديق عرفه من آل العجاجي، فاحتفظ بذكراه ولهج بفضائله، وحفظ له عهده عقوداً، كانت خسارته لصديقه جرحاً انبجس عنه نبع من الحب لاينضب، وشوق عارم حزين.

وقد كان محظوظاً أن يعيش بهذه الروح الكبيرة والمهجة العنيدة ثلاثة وتسعين عاماً.

توفي فهد يوم الثلاثاء الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. فاضت روحه في اللحظات التي تجمدنا فيها لنشهد على التليفزيون سقوط برجي مركز التجارة العالمي. بموته تشرذم أتباعه وتهاوى بعضهم وفقد آخرون البوصلة، وافق يوم موته لحظة تدشين عالم جديد. فقد كان معلماً من معالم بريدة، وأسطورة لامثيل لها[٢٧].

خاتمة

تكشف الوقائع والقصص التي رويتها عن تصوف إخوان بريدة، أنه تصوف في السلوك والتطبيق العملي للحياة في المأكل والمشرب والعبادة ومداومة الذكر والصلاة والتقلل من الدنيا والرضى بالقليل. وهو يشابه إلى حد كبير تصوف أهل الحديث والأثر، ولكن مع وفاء كبير لتعاليم الإمام ابن عبدالوهاب، مع بعض الشطحات التي احتُملت وجرى التغاضي عنها في توجهات فهد العبيد ومريديه.

لقد عشت بين إخوان بريدة قريبا من خمس سنوات خالصة وأنا منهم، وكانوا دائماً كالرقباء والأوصياء على سلامة الطريق وصحة المنهج والأكثر احتساباً من بين الوهابيين، مع شعور عميق وقناعة راسخة أنهم هم صفوة السلف وخيار هذه الأمة. وليس غريباً أن يكون لهم –رغم قلة نفوذهم العلمي والفقهي وغلبة العوام فيهم– حظوة وسطوة وهيبة عند علماء الوهابية الكبار وهو مالمسته في أكثر من زيارة ولقاء جمعنا مع الشيخ عبدالعزيز بن باز وغيره من العلماء. تضافر ذلك مع تقدير كبير للإخوان من قبل الملك والأمراء الكبار في كل مكان يفدون إليه في أصقاع البلاد. ولكن هذا الاحترام الكبير والتقدير تعرض لانكسار عام ١٤٠٧هـ–

[٢٧] قد يكون فهد في سنواته التي فاقت السبعين عاماً واعظاً ومذكراً قد قال وكتب مايغطي آلاف الأوراق التي أوصى بأن تحرق بعد موته كما أفصح لي عن ذلك في زيارتي الأخيرة له صيف ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨، ولكن مايميز فهداً هو بصمته التي تميزه عن غيره، تلك النكهة المتفردة، وقد عبر عن ذلك بعض مما أوردته. فإن كل مانشر هنا هو من الأمور المعلنة والمعروفة عن فهد، قالها في مسجد أو في مجلس وعظه، صحيح أن بعضاً منها كان محصوراً في دائرة الجماعة الصغيرة ولكنه لم يكن سراً، وماعداها فهي مما شاهدته أو تلقيته منه مباشرة، يبقى أن الكاتب يصاب بحيرة حين يقوم بعملية الانتقاء والاختيار من ركام القصص والحكايا والمواقف التي تختزنها ذاكرته، وتشكل كل واحدة منها لبنة تضفر مع الأخريات صورة مقاربة لمن نكتب عنهم، وهذا دائماً يمثل امتحاناً كبيراً لأي كاتب يتناول السير الشخصية.

١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨، بعدما أغلقت مدرستهم الدينية، ثم تضعضعت منزلتهم إثر التغير الكبير الفكري والديني بعد تسرب الفكر الجهادي والتكفيري إلى أجيالهم الشابة، وتلوث بعض كبار السن فيهم بتلك الأفكار. كما أن رحيل الكبار منهم والمؤثرين فيهم كان عاملاً مساعداً في ذلك التحول ، وذلك يعود لأسباب أرجو أن يكون شرحها في دراسة أكثر توسعاً من هذه الشهادة التي هي إضاءة ورواية عن قوم كانوا فبانوا.